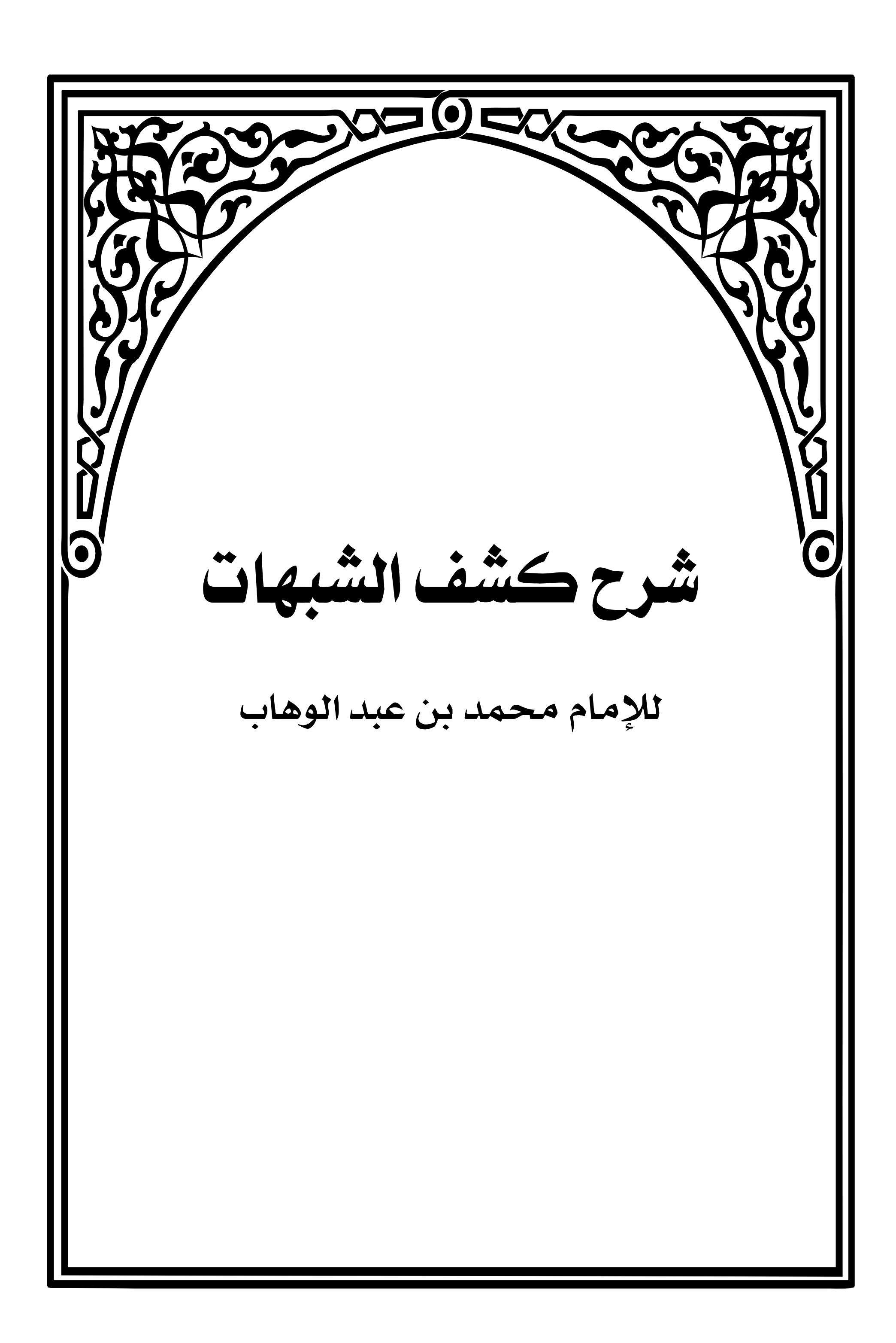


شرح كشف الشبهات

للإمام محمد بن عبد الوهاب

إفراد الله بالعبادة دين جميع الأنبياء والمرسلين

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَه اللهُ تَعَالىٰ: «اعْلَم -رَحِمَك اللهُ- أَنَّ التَّوحِيدَ هُو إِفرادُ اللهِ ﷻ بالعِبَادَة، وهُو دِينُ الرُّسُل الَّذِي أَرسَلَهم اللهُ بِه إِلَىٰ عِبادِهِ:

فَأَوَّلُهم: نُوحٌ ﵇، أَرسَلَه اللهُ إِلىٰ قَومِه لَمَّا غَلَوا فِي الصَّالِحِين: وَدًّا وسُواعًا وَيَغوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا.

وآخِرُ الرُّسُل: مُحمَّدٌ ﷺ، وهُوَ الَّذي كَسَر صُوَر هَؤلاءِ الصَّالحِين، أَرسَلَه اللهُ إِلىٰ قَوْمٍ يَتعَبَّدُون، ويَحُجُّون، ويَتَصَدَّقُون، ويَذكُرُون اللهَ كَثيرًا؛ وَلَكنَّهم يَجعَلُون بَعضَ المَخلوقَاتِ وَسَائِطَ بَينَهُم وَبَينَ اللهِ، يَقولُون: نُرِيدُ مِنهُمُ التَّقرُّبَ إِلىٰ اللهِ، ونُرِيدُ شَفاعَتَهُم عِنْدَه، مِثْل المَلائِكَة، وعِيسىٰ، ومَرْيَم، وأناسٍ غَيرهم مِن الصَّالِحين.

فَبَعَثَ اللهُ إِلَيْهم مُحمَّدًا ﷺ يُجدِّدُ لَهُم دِينَ أَبيهِم إِبراهِيمَ ﵇، ويُخبِرُهم أَنَّ هَذا التَّقرُّبَ وَالاعْتقادَ مَحضُ حقِّ اللهِ، لَا يَصلُحُ مِنْه شَيءٌ لَا لِمَلَكٍ مُقرَّبٍ، وَلَا لِنَبِيٍّ مُرسَلٍ، فَضلًا عَن غَيرِهما، وَإِلَّا فَهؤلاءِ المُشرِكُون مُقرُّونَ وَيَشهَدُونَ أَنَّ اللهَ هُو الخَالِقُ الرَّازِقُ وَحدَهُ لا شَريكَ لَه، وَأَنَّه لا يَرزُق إِلَّا هُوَ، وَلَا يُحيِي إِلَّا هُوَ، وَلَا يُمِيتُ إِلَّا هُو، وَلَا يُدَبِّرُ الأَمْرَ إِلَّا هُو، وأَنَّ جَمِيعَ السَّماوَاتِ السَّبْع

وَمَنْ فِيهِنَّ، وَالأَرَضِينَ السَّبْع وَمَن فِيهِنَّ، كُلُّهم عَبِيدُهُ، وَتَحتَ تَصَرُّفِه وَقَهْرِهِ».

التعليق

أَقُولُ: بيَّنَ شَيخُ الإِسلامِ مُحمَّد بنُ عَبدِ الوَهَّاب رَحِمَهُ اللهُ في هَذا المَقطَعِ أَنَّ التَّوحيدَ هُو إِفرادُ اللهِ بالعِبادَةِ دُونَ سِواه، وأَنَّ العِبادَةَ لَا يَجوزُ أَنْ يُصرَفَ مِنْها شَيْءٌ لِغَيْر اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وَمِن أَجْلِ ذَلكَ أَرسَل اللهُ الرُّسُلَ، وَأَنْزلَ الكُتُبَ؛ لِبَيانِ هَذا التَّوحِيدِ، وَأَنَّه هُوَ أَسَاسُ الدِّينِ، وَقَاعِدَةُ المِلَّةِ الَّتي عَلَيْها يُبنَىٰ، وأَنَّ مَنْ أَشرَكَ مَع اللهِ شَيْئًا مِنْ خَلقِهِ فَإِنَّه قَدْ خَرَج عَن هَذا التَّوحيدِ، واسْتَحقَّ الذَّمَّ، واللَّومَ، والعُقوبَةَ مِن اللهِ تَعالَىٰ.

وأَنَّ كُلَّ مَن سِواهُ مِن المَخلُوقِين لَا يَجوزُ للعَبْد أَنْ يُقَدِّم لَهُم شَيْئًا مِنْ أَنواعِ العِبادَةِ؛ لَا دُعاءً، ولَا رَغبَةً، وَلَا رَهبَةً، وَلَا خَشيَةً، وَلَا اسْتغَاثَةً، وَلَا اسْتعَاذَةً، وأَنَّ ذَلكَ يَستَوِي فِيهِ جَميعُ المَخلوقِين، مِن أَفْضَل المَلائِكَة (جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ) إِلَىٰ أَدنَىٰ شَخْصٍ مِن العِبادِ، كُلُّ ذَلكَ لَا يَجوزُ أَنْ يُدعَىٰ مِن دُونِ اللهِ، وَلَا أَنْ يُصرَفَ لَهُم شَيءٌ مِن أَنواعِ العِبادَةِ.

وَأَنَّ قَولَ المُشركِينَ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، يَقصِدُون بذَلكَ أَنَّ هَؤُلاءِ المَعبُودِين يَكونُون وَسَائطَ بَينَهم وَبَين اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، هَذِه الشُّبهَةُ الَّتي صُرِفَت بِها العِبادَةُ لِغَيْر اللهِ تَعالىٰ إِنَّها شُبْهةٌ باطِلَةٌ، وأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا

يَرضَىٰ أنْ يُعبَد مَعَه أحدٌ غَيرُه، وَلِذَلِك أَرسَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نُوحًا إِلَىٰ قَومِه حِينَ عَبَدوا مَع اللهِ أُولَئِك الصَّالِحِين، وصَوَّروا صُوَرَهم، وقَدَّمُوا لَهُم أَنواعَ العِبادَاتِ مِن النُّذُور والدُّعاءِ وَغَيْر ذَلكَ بِزَعمِهِم أَنَّهم يَكُونُون شُفعاءَ.

وَردَّ اللهُ عَلىٰ مَن قَالَ هَذا القَولَ بِقَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء:٥٧]، أَيْ: إِنَّ الَّذينَ تَعبُدُونَهم هُم كَانُوا يَبْتَغُون إِلَىٰ اللهِ الوَسيلَةَ، والوَسيلَةُ هيَ كُلُّ مَا تَوَصَّلْتَ بِه إِلَىٰ شَيْءٍ، كقَوْل العَرَب بِأَنَّ الرِّشَا هُو الحَبْل الَّذي تُوضَع فِيه الدَّلْو، ويَنزِل عَلىٰ المَاءِ حتَّىٰ يَأخُذَه مِن قَعْر البِئْر، وَهُو وَسيلَةٌ، فكُلُّ مَا تَوَصَّلْتَ بِشَيْءٍ إِلَىٰ شَيْءٍ فَهُو وَسيلَةٌ إِلَيْه.

لَكِن مِن الوَسيلَةِ مَا هُو جَائِزٌ ومَا هُو مَمنُوعٌ:

فالتَّوسُّلُ إِلَىٰ اللهِ بالعِبادَةِ الَّتي شَرَعَها عَلىٰ أَلسِنَةِ رُسُلِه، وأَنْزَلَها فِي كُتُبِه هَذه هِي الوَسيلَة المَطلُوبَة.

أَمَّا الوَسيلَةُ المُحرَّمَة: فَهِي مَا حَرَّمَه اللهُ مِن دُعاءِ هَؤُلاءِ المَعبُودِين، واللُّجُوءِ إِلَيْهِم عِندَ الكُرْبَةِ فِيمَا لَا يَقدِرُ عَلَيْه إِلَّا اللهُ؛ لِأَنَّ هَؤُلاءِ هُمْ مَملُوكُونَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَسَائِر الخَلْق.

وثَانِيًا: أَنَّ قِياسَ اللهِ بالمُلُوكِ لَا يَجوزُ؛ لأَنَّ المُلوكَ مَخلُوقُون ضُعفاءُ، فَهُم إِذَا جُعِلَتْ بَينَهُم وَبَين مَن يُريدُون حَاجَات مِنْهم وَسَائِطُ وشَفاعَاتٌ، فَذلِك يَليقُ بِهِم، أَمَّا رُبوبِيَّةُ اللهِ فَهِي لَا تَحتاجُ إِلىٰ ذَلكَ؛ لأَنَّ اللهَ لَا تَخفَىٰ عَلَيه الأمُورُ الَّتي تَخفَىٰ عَلىٰ العِبادِ، ولَيْس بَيْن اللهِ وَخَلْقِه وسَائِط يُوصِلون ما

يَخفىٰ عَنه، واللهُ مُطَّلعٌ عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ، وإِذا سَأَله عَبْدٌ مِن العِبادِ عَرَف سُؤالَه وحَاجَتَه قَبلَ أنْ يَتكَلَّم بِها السَّائلُ، فاسْتجابَ لَه إنْ كَانَ بِحَاجَة إلَىٰ الاسْتجَابَةِ، وإذَا شَاءَ اللهُ اسْتجابَ لَه، وصَرَف عَنْه مَا طَلَب صَرفَهُ مِن المَكروهاتِ، وَجَلَب لَه مَا طَلَب جَلْبَه مِن المَنافِعِ، فَهَذِه الشُّبْهَة شُبهةٌ سَاقِطةٌ في حَقِّ اللهِ ﷻ.

وبِاللهِ التَّوفيقُ.

❊❊❊

مشركو العرب يقرون بتوحيد الربوبية

فَإِذَا أَرَدْتَ الدَّلِيلَ عَلىٰ أَنَّ هَؤُلاءِ المُشرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَشهَدُونَ بِهَذَا فَاقْرَأْ قَولَهُ تعالَىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١]، وَقَوْلَه: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون:٨٤، ٨٩].

فَإِذا تَحَقَّقْتَ أَنَّهم مُقِرُّونَ بِهَذا وأَنَّه لَمْ يُدْخِلْهُم في التَّوحِيدِ الَّذي دَعاهُم إِلَيْه رَسُولُ اللهِ ﷺ، وعَرَفْتَ أَنَّ التَّوحِيدَ الَّذِي جَحَدُوه هُوَ تَوحِيدُ العِبادَةِ الَّذي يُسمِّيه المُشرِكُونَ في زَمانِنا الاعْتِقَاد كَما كَانُوا يَدعُون اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لَيلًا ونَهارًا، ثمَّ مِنْهُم مَن يَدعُو المَلائِكَة لأَجْلِ صَلاحِهِم وَقُرْبِهم مِن اللهِ لِيَشْفَعُوا له، أَو يَدعُو رَجُلًا صَالِحًا مِثْل اللَّات، أَو نَبِيًّا مِثْل عِيسىٰ، وعَرَفْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلَهُم عَلَىٰ هَذا الشِّرْك ودَعَاهُم إِلَىٰ إِخلاصِ العِبادَةِ للهِ وَحْدَه كَمَا قَالَ تَعالَىٰ:

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨ ﴾ [الجن:١٨]، وكما قال تعالىٰ: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ [الرعد:١٤].

وَتَحَقَّقْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلَهُم لِيَكُونَ الدُّعاءُ كُلُّه للهِ، وَالنَّذْرُ كُلُّه للهِ، والاسْتِغَاثَةُ كُلُّهَا باللهِ، وَجَمِيعُ أَنواع العِبادَاتِ كُلُّها للهِ. وعَرَفْتَ أَنَّ إِقرَارَهُم بتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّة لَمْ يُدْخِلْهُم في الإِسلَام، وَأَنَّ قَصْدَهُم المَلائِكَةَ، وَالأَنبياءَ، وَالأَوْلياءَ، يُرِيدُون شَفاعَتَهُم وَالتَّقرُّبَ إِلَىٰ اللهِ بِذَلكَ هُوَ الَّذي أَحَلَّ دِماءَهُم وَأَموالَهُم؛ عَرَفْتَ حِينَئِذٍ التَّوحِيدَ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَأَبَىٰ عَنِ الإِقْرَارِ بِهِ المُشْرِكُونَ، وَهَذَا التَّوحِيدُ هُوَ مَعْنَىٰ قَوْلِكَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فَإِنَّ الإِلَهَ عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يُقْصَدُ لِأَجْلِ هَذِهِ الأُمُورِ، سَوَاء كَانَ مَلَكًا، أَوْ نَبِيًّا، أَوْ وَلِيًّا، أَوْ شَجَرَةً، أَوْ قَبْرًا، أَوْ جِنِّيًّا، لَمْ يُرِيدُوا أَنَّ الإِلَهَ هُوَ الخَالِقُ الرَّازِقُ المُدَبِّرُ، فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذَلِكَ للهِ وَحْدَهُ كَمَا قَدَّمْتُ لَكَ.

وَإِنَّمَا يَعْنُونَ بِالإِلَهِ مَا يَعْنِي المُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا بِلَفْظِ (السَّيِّد)، فَأَتَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَهِيَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَالمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ مَعْنَاهَا، لَا مُجَرَّدُ لَفْظِهَا. وَالكُفَّارُ الجُهَّالُ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ تَعَالَىٰ بِالتَّعلُّقِ، وَالكُفْرُ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، وَالبَرَاءَةُ مِنْهُ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ ﷺ: «قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[1]، قَالُوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾ [ص:٥].

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٢) من حديث طارق المحاربي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٦٥٢٨).

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّالَ الكُفَّارِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ، فَالعَجَبُ مِمَّنْ يَدَّعِي الإِسْلَامَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الكَلِمَةِ مَا عَرَفَهُ جُهَّالُ الكَفَرَةِ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّلَفُّظُ بِحُرُوفِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ القَلْبِ لِشَيْءٍ مِنَ المَعَانِي. وَالحَاذِقُ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهُ: لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يُدَبِّرُ الأَمْرَ إِلَّا اللهُ، فَلَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالُ الكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعْنَىٰ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

***

التعليق

فِي هَذا المَقطَع يَذكُر شَيْخ الإِسْلَام مُحمَّد بنُ عَبْد الوَهَّاب بأنَّ المُشرِكِينَ الَّذِين قَاتَلَهُم الرَّسُولُ ﷺ كَانُوا يُؤمِنُون بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّة، فَهُم يَعلَمُون أنَّ اللهَ هُو الخَالِقُ الرَّازِقُ المُحْيي المُمِيتُ، وَهُو المُدَبِّرُ لِجَمِيع الأُمُورِ، لَمْ يَعتَقِدُوا أنَّ اللَّاتَ وَالعُزَّىٰ خَلَقَتْهُم، وَلَا أنَّها هِي الَّتِي تُمِيتُهُم، وَلَا أنَّها هِي الَّتِي خَلَقَتِ السَّمَاواتِ وَالأَرْضَ، بَلْ إِنَّهُم يَعْلَمُون بأَنَّ اللهَ خَلَق هَذِه الأَشْياءَ: السَّمَاوَات السَّبْعَ، وَالأَرضين السَّبْعَ وَمَن فِيهِنَّ، ومَا بَينَهُما، وهَذا مَا يُسمَّىٰ بِتَوْحِيدِ الرُّبوبِيَّة.

فَإِذا عَلِمْنا أنَّ المُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ بِتَوحِيدِ الرُّبوبِيَّة، وَمَع ذَلكَ فَهُم يَصرِفُونَ شَيْئًا مِن عِبادَاتِهم وَدُعائِهم وَنَذْرِهم، يَصرِفُون هَذه الأَشياءَ وَمَا هُو مِثْلُها لِغَيْر اللهِ ﷻ، مُعتَقِدين شَفاعَةَ الآلِهَة الَّتي يَعبُدُونَها، فَأَخْبَر اللهُ عَنْ ذَلكَ بأَنَّهُم مُعتَرِفُون بتَوحِيدِ الرُّبُوبِيَّة، ولَكِنَّهم يُنكِرُون إِفرادَ اللهِ بالعِبادَةِ،

ولِذَلِكَ قَاتَلَهُم رَسُولُ الله ﷺ، فَسَفَكَ دِماءَهُم، وَسَبَىٰ ذَرَارِيَّهم، وَغَنم أَمْوالَهُم بسَبَب كَونِهم يَصرِفُون العِبادَةَ لِغَيْر اللهِ.

إِذَا عُلِم هَذا، فإِنَّه يَتبَيَّن أَنَّ الخُصومَةَ بَيْن الأَنبياءِ وَأُمَمِهم إنَّما هُو في تَوحيدِ الأُلُوهِيَّة، قَالَ تعالَىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وقَالَ تَعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [الزمر:٦٥].

فَتَبَيَّن مِن هَذا أَنَّ دَعوَةَ غَيْر اللهِ شِرْكٌ، وطَلَب الحَوائِج مِنْهُم الَّتي لَا يَقدِرُ عَلَيْها إِلَّا اللهُ أَنَّه شِرْكٌ مُخرجٌ مِن المِلَّة، مُبِيحٌ لِدَم مَن فَعَلَه، وَغَنِيمَةِ مَالِه، وَسَبْي نِسائِهم، وَهَذا التَّوحِيدُ هُو الَّذي فِيه الخُصُومَةُ بَيْن الرُّسُلِ وَأُمَمِهم، وباللهِ التَّوفِيقُ.

كَانَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ يَعرِفُون أَنَّ كَلِمَةَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» لَا مَعبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، فَلِذَلِكَ قَالُوا للنَّبيِّ ﷺ: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص:٥]، فعَرَفُوا أَنَّ كَلِمَةَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» تَنْفِي عِبادَتَهُم الَّتي يُقَدِّمُونَها للآلِهَة؛ كَاللَّاتِ والعُزَّىٰ وَمَا أَشبَهَ ذَلكَ.

إِذًا؛ فَأُولَئِك المُشرِكُون كَانُوا أَعلَمَ بمَعْنَىٰ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» مِن هَؤُلاءِ المُسلِمِينَ الَّذينَ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَهُم مَع ذَلك يَعبُدُونَ غَيْرَ اللهِ بالدُّعاءِ، والخَوْفِ، والرَّجاءِ، والنَّذْرِ، والرَّغْبَةِ، والرَّهْبَةِ، وغَيْرِ ذَلكَ، إِذَا عَلِمْتَ هَذا أَيُّهَا العَبْدُ عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ أَنقَذَكَ ممَّا وَقَع فِيه أُولَئِك،

وَأَنْعَمَ عَلَيْكَ بِتَوْفِيقِكَ للعَقِيدَةِ الصَّحيحَةِ الَّتي ضَلَّ عَنْها أُولَئِك المُشرِكُون، فاحْمَدِ اللهَ عَلىٰ تَوفِيقِه إِيَّاكَ، وسَلَامَتِكَ مِن الشِّرْكِ الَّذي وَقَع فِيه كَثيرٌ مِن النَّاسِ، وبِاللهِ التَّوفيقُ.

❊ ❊ ❊

الموت على الشرك يوجب الخلود في النار

إِذَا عَرَفْتَ مَا ذَكَرْتُ لَكَ مَعْرِفَةَ قَلْبٍ، وَعَرَفْتَ الشِّرْكَ بِاللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨]، وَعَرَفْتَ دِينَ اللهِ الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَىٰ آخِرِهِم الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَاهُ، وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبُ النَّاسِ فِيهِ مِنَ الجَهْلِ بِهَذَا؛ أَفَادَكَ فَائِدَتَيْنِ:

الأُولَىٰ: الفَرَح بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس:٥٨].

وَأَفَادَكَ أَيْضًا: الخَوْفَ العَظِيمَ، فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ، فَلَا يُعْذَرُ بِالجَهْلِ، وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ كَمَا ظَنَّ المُشْرِكُونَ، خُصُوصًا إِنْ أَلْهَمَكَ اللهُ مَا قَصَّ عَلَىٰ قَوْمِ مُوسَىٰ مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٨]، فَحِينَئِذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ وَحِرْصُكَ عَلَىٰ مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِهِ.

***

التعليق

وَأَقُولُ: فِي هَذا المَقْطَع ذَكرَ شَيخُ الإِسْلامِ أَنَّ مَنْ عَرَف الشِّركَ، وَعَرَف أنَّه لَا يُغفَر كَمَا فِي الآيَةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، وَعَرَفَ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي أُرسِلَت بِه الرُّسُلُ، وَأُنزِلَتْ بِه الكُتُبُ، هُو تَوحيدُ اللهِ الَّذي لَمْ يَقبَلْ مِن أَحدٍ دِينًا سِوَاه، **فَإِنَّه حِينئذٍ تَستَفِيدُ فَائِدَتَيْن:**

١- مُوافَقَتكَ للعَقِيدَة الحَقَّة؛ فتَفْرَح بمُوافَقَتِها، وَتَغتَبِط بذَلكَ، وتَحرِص عَلَيه، وتَسْأَل اللهَ الثَّباتَ عَلَيْه.

٢- أَنَّك تَستفِيدُ مِن ذلكَ خَطَرَ العَقيدَة، بمَعْنىٰ عِظَمِها وَشَرَفِها والخَوْف مِن ضَياعِها وذَهابِها، فيَكْثُر مِنْكَ السُّؤالُ والابْتهَالُ إِلَىٰ اللهِ -جلَّ وعَلا- أَنْ يُثَبِّتَكَ علَىٰ هَذِه العَقيدَةِ الَّتي مَن حَادَ عَنْها هَلَك، والَّتي خَافَ إِبراهيمُ عَلىٰ نَفْسِه وَعَلىٰ بَنِيه أنْ تُسْلَبَ مِنْه، فَقَالَ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم:٣٥].

فتَسْأَل اللهَ دَائمًا الثَّباتَ عَلىٰ الحَقِّ الَّذي مَنْ سُلِبَه أَو ضَلَّ عَنْه فَقَد سُلِبَ مِنْه كُلُّ خَيْر، وَنَزَل بِه كُلُّ شَرٍّ، فتَحْرِص كُلَّ الحِرْصِ وَتَدْعُو اللهَ كَثِيرَ الدُّعاء أَنْ يُثَبِّتَك علَىٰ الدِّين حتَّىٰ تَمُوتَ عَلَيْه.

وبِاللهِ التَّوفِيق.

حكمة الله في ابتلاء أنبيائه بأعداء من الإنس والجن

وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

وَقَدْ يَكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ، وَكُتُبٌ، وَحُجَجٌ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣]، إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَىٰ اللهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعَدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ أَهْل فَصَاحَةٍ، وَعِلْمٍ، وَحُجَجٍ؛ فَالوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا لَكَ تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدَّمُهُمْ لِرَبِّكَ عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف:١٦، ١٧].

التعليق

وَأَقُولُ: ذَكَر الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ نَبيًّا بِهَذا التَّوْحيدِ إلَّا جَعَل لَه أَعْدَاءً، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلىٰ ذَلكَ قَولُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[الفرقان:٣١].

فَهَذِه الآيَة دَالَّة عَلىٰ أنَّ الأَنبياءَ يُبْتَلونَ بأَعْداءٍ أَقوِيَاءَ أَصحَاب فَصَاحَةٍ وَلِسْنٍ[1]، يُجادِلُونَ بالبَاطِل.

ويُرِيدُونَ دَحضَ الحَقِّ بالبَاطِل، وقَد حَكَىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مِن مُجادَلَة أُولَئِك المُشرِكِين في قَولِه -جلَّ وعَلا- عَنْهُم أَنَّهُم قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾[ص:٥].

وقَوْله في مَوضُوع التَّذْكِيَة: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ۝١٢١﴾[الأنعام:١٢١].

وَكَما حَكىٰ -سُبحانَه- أَقْوَالًا مِن أَقوالِ المُشْرِكينَ، وَردَّ عَلَيْهم.

فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَد عَلِم أنَّ هَؤُلاءِ الأَعدَاء للأَنْبياءِ يَبْذُلُون جُهْدَهم في الصَّدِّ عَن سَبيلِ اللهِ، وإِيهامِ مَن لَا يَعلَم الحَقَّ بأَنَّهم عَلىٰ الحَقِّ، وأنَّ الأَنبياءَ عَلىٰ البَاطِل، ولَيْس بِبَعيدٍ عنَّا ما ذكرَ في مُجادَلَة قُريشٍ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزَعْمِهم أنَّه أَتاهُم بشَيْءٍ لَمْ يَأتِ بِه أَحَدٌ قَوْمَه، سَفَّهَ أَحلَامَهُم، وعَابَ آلِهَتَهُم، وسَبَّ آبَاءَهُم، فيُظْهِرُون للسَّامِعِينَ أَنَّهم عَلىٰ الحَقِّ، والنَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلىٰ البَاطِل.

---

(١) اللِّسْنُ، بكسر اللام: اللُّغَة. يُقال: لكل قَومٍ لِسْنٌ، أي: لُغة يتكلَّمون بها.

والحَقيقَة العَكسُ، بَل الأَنبياءُ هُم الَّذين عَلىٰ الحَقِّ وأنَّ أَعداءَهُم عَلىٰ البَاطِلِ، بلْ قَد قَالَ إِمامُهُم ومُقدَّمُهم لرَبِّ العِزَّةِ والجَلالِ: ﴿لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف:١٦]، أيْ: أَدْفَعهم عَنه، وأُبْعِدُهم عَنه، واللهُ تَعالَىٰ قَد أَخبَر أنَّ كَيدَ الشَّيطانِ كَانَ ضَعِيفًا، إلَّا أنَّ أَهلَ الحَقِّ يَنبَغِي لَهُم أنْ يَتَسَلَّحُوا بالعِلْم الَّذي يُجادِلُونَ بِه أَعدَاءَ اللهِ، وَيُبْطِلُونَ بِهِ حُجَجَهُم، ويَفضَحُونَ بِه مَزَاعِمَهُم البَاطِلَة، فَإِذا فَعَلُوا ذَلكَ، تَحَصَّنُوا مِن الشَّيطانِ، وَلَمْ يَنَلْهُمْ بِأَذَىٰ.

وبِاللهِ التَّوفِيق.

العامي من الموحدين يغلب ألفًا من علماء المشركين

ولكِنْ إذا أَقْبَلْتَ علىٰ اللهِ، وَأَصْغَيْتَ إِلَىٰ حُجَجِهِ وبَيِّنَاتِهِ، فَلَا تَخَفْ، وَلَا تَحْزَنْ، إنَّ كَيدَ الشَّيطَان كَان ضَعِيفًا.

وَالعَامِيُّ مِنَ المُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ أَلْفًا مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلاءِ المُشْرِكِينَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧٣].

التعليق

ذَلكَ لأَنَّ المُوحِّد حُجَّتُه قَويَّة تُؤَيِّدُها الفِطرَةُ، ويَشهَدُ لَها الحِسُّ والعَقْلُ، أَمَّا المُشْرِكُ فَحُجَّتُه ضَعِيفَةٌ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد قَالَ في كِتابِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج:٧٣].

وفِي سُورَة العَنكَبُوت ضَرَب اللهُ مَثَلًا لِحُجَّةِ المُشرِك بأَنَّها أَوهَىٰ مِن بَيْت العَنكَبُوت، ذَلكَ لِأَنَّ آلِهَةَ المُشرِكِين لَا يَملِكُون شَيْئًا، فَقَالَ تَعالَىٰ: ﴿مَا

يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر:١٣]، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤]، والحَقُّ وَاضِحٌ لَا غَبَشَ عَلَيْه، وباللهِ التَّوفِيق.

❁❁❁

أهل العلم والإيمان هم الغالبون بالحجة واللسان والسيف والسنان

فَجُنْدُ اللهِ هُمُ الغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ، كَمَا أَنَّهُم الغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالسَّنَانِ، وَإِنَّمَا الخَوْفُ عَلَىٰ المُوَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسِ مَعَهُ سِلَاحٌ. وَقَدْ مَنَّ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل:٨٩].

التعليق

أَقُولُ: كِتابُ اللهِ فِيه بَيانُ مَا يَحتاجُ إِلَيْه النَّاسُ في دِينِهم، فَهُو مُبَيَّنٌ فِيه، وَلَيْس مَعنَىٰ ذلكَ أنَّ كُلَّ بَاطِلٍ يَكونُ مَذكُورًا في القُرآنِ، ومَردُودًا فيهِ صَراحَةً، ولَكِن أُصُول المَسائِلِ الَّتي يُحتَاجُ إِلَيْها في الدِّينِ مُوَضَّحَة في كِتابِ اللهِ؛ إِمَّا نَصًّا، وإِمَّا مَفهُومًا، وقَدْ قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

والمُهِمُّ: أَنَّ القُرآنَ بَيَّن أُصولَ مَسائِلِ الدِّينِ، ومَا تَجَدَّد عَلىٰ مَدىٰ العُصُور،

فَهُو لَا يَخرُج عَن الأُصُول الَّتي بيَّنها إمَّا بالنَّصِّ، وإمَّا بالمَفهُوم، وإمَّا بالقِياسِ، كَما في هَذه الآيَة، وَاللهُ تَعالَىٰ يَقُولُ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان:٣٣]، أَي: لَا يَأْتُونَ بمَسْأَلَة وَلَا شَيْءٍ مِن البَاطِل إِلَّا رَدَدْنا عَلَيْه وبيَّنَّاه، ووَضَّحْناهُ، فَكُلُّ مَن كَانَ عِلمُه بالكِتابِ والسُّنَّة أَعمَق، كَان رَدُّه علىٰ المُخالِفِين أَكثَرَ وَأَوفَرَ، وكُلَّما كَانَ دُونَ ذَلكَ؛ فَإنَّ رَدَّه يَكُونُ بَحَسَبِه.

❊❊❊

دحض القرآن لمزاعم أهل البطلان

فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ باطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا وَفِي القُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا، وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان:٣٣].

قَالَ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ: هَذِهِ الآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ البَاطِلِ إِلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَأَنَا أَذْكُرُ لَكَ أَشْيَاءَ مِمَّا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ جَوَابًا لِكَلَامٍ احْتَجَّ بِهِ المُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا عَلَيْنَا.

التعليق

وَأَقُولُ: أَخْبَرَ الشَّيْخُ مُحمَّد بنُ عَبْد الوَهَّاب أَنَّ القُرآنَ قَد رَدَّ عَلىٰ المُشرِكِينَ، وَاليَهودِ، والنَّصارَىٰ، فِي كُلِّ مَا جَاء بِه مِن الحُجَج، فزَيَّف حُجَجَهُم، وبَيَّنَ بُطلَانَها، وأَخْبَرَ نَبيَّه وأُمَّةَ نَبِيِّه بالحَقِّ فِي ذَلكَ الجِدال.

فَمَثلًا حِينَ قَالَ المُشرِكُون للمُسلِمِين حِينَ قَالُوا: إِنَّ المَيْتَةَ حَرامٌ، وإِنَّه لَا

يَحلُّ إلَّا المُذَكَّىٰ، فألْقَىٰ الشَّياطِينُ إِلَىٰ أَوليائِهم بِأنَّكم تُحَرِّمُون عَقيرَةَ اللهِ، وتَأْكُلونَ عَقِيرَتكُم، عِنْد ذَلكَ أَنزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ قولَه تَعالَىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾[الأنعام:١٢١].

ومِثْل سُؤالِ اليَهود عَن الرُّوحِ، فَأَنزَل اللهُ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾[الإسراء:٨٥]، إِلَىٰ غَيْر ذَلكَ مِن الأَسئِلَة.

وإنَّ أَجوِبَة الشُّبْهَة الَّتي يُلقِيها أَعداءُ الإِسلام قَد وَرَدَت في القُرْآن مَردُودٌ عَلَيْها، فَإذا جَاءَت شُبْهةٌ مِن عِنْد المُشرِكِين والكُفَّار فَإمَّا أَنْ تكونَ مُساوِيةً للحُجَج المَذكُورَة في القُرْآن لَفظًا وَمَعْنًىٰ، وإمَّا أَنْ تكونَ مُخالِفةً لَها، ولَكِنَّها مِن حَيْث المَعْنىٰ تكونُ دَاخِلةً تحتَ عَامٍّ، أَو تَحتَ مُجْمَلٍ.

وإنَّ أَهلَ العِلْم الجَدِيرين بِه، المُتَمَرِّسينَ عَلىٰ مَعرِفَتِه ومَعْرِفةِ السُّنَّة، لابدَّ أنْ يَجِدوا في الكِتَابِ والسُّنَّة مَا يَرُدُّ تِلكَ الشُّبْهةَ، حتَّىٰ وَإنْ كَانَت ممَّا اسْتجدَّ في العَصْر ولَمْ يَكُن مَعْرُوفًا في الأَزمِنَة القَديمَة، وإنَّ طَالِبَ العِلْم يَحتاجُ إِلىٰ إِدامَةِ النَّظَر في كِتابِ اللهِ، والتَّعَرُّف عَلىٰ الحُجَج الَّتي أَدْلَىٰ بِهَا المُشْرِكُون، ثُمَّ المُقارَنَة بَينَهَا وبَيْن حُجَجِ أَهْل البَاطِل في هَذا الزَّمَن، فمَنْ وَفَّقَه اللهُ يَستَطِيعُ أَنْ يُردَّ عَلَيْهِم رَدًّا مُفحِمًا، إمَّا بالأَشْياء الَّتي رَدَّ بِها القُرْآنُ عَلَيْهم، أَو بِغَيْرِها ممَّا يُشابِهُهَا.

وباللهِ التَّوفيقُ.

الجواب المجمل والمفصل على افتراءات أهل الباطل

فَنَقُولُ: جَوَابُ أَهْلِ البَاطِلِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: مُجْمَلٍ، وَمُفَصَّلٍ.

أَمَّا المُجْمَلُ: فَهُوَ الأَمْرُ العَظِيمُ، وَالفَائِدَةُ الكَبِيرَةُ لِمَنْ عَقَلَهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران:٧].

وَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّىٰ اللهُ، فَاحْذَرُوهُمْ»[(١)].

مِثَالُ ذَلِكَ: إِذَا قَالَ بَعْضُ المُشْرِكِينَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس:٦٢]، وَأَنَّ الشَّفَاعَةَ حَقٌّ، وَأَنَّ الأَنْبِيَاءَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللهِ؛ أَوْ ذَكَرَ كَلَامًا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ بَاطِلِهِ، وَأَنْتَ لَا تَفْهَمُ مَعْنَىٰ الكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ، فَجَاوِبْهُ بِقَوْلِكَ:

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

إِنَّ اللهَ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يَتْرُكُونَ المُحْكَمَ، وَيَتَّبِعُونَ المُتَشَابِهَ، وَمَا ذَكَرْتُهُ لَكَ مِنْ أَنَّ اللهَ ذَكَرَ أَنَّ المُشْرِكِينَ يُقِرُّونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَأَنَّ كُفْرَهُمْ بِتَعَلُّقِهِمْ عَلَىٰ المَلَائِكَةِ، وَالأَنْبِيَاءِ، وَالأَوْلِيَاءِ مَعَ قَوْلِهِمْ: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨]، هَذَا أَمْرٌ مُحْكَمٌ بَيِّنٌ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَ مَعْنَاهُ.

وَمَا ذَكَرْتَ لِي أَيُّهَا المُشْرِكُ مِنَ القُرْآنِ، أَوْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ، لا أَعْرِفُ مَعْنَاهُ. وَلَكِنْ أَقْطَعُ أَنَّ كَلَامَ اللهِ لَا يَتَنَاقَضُ، وَأَنَّ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ لا يُخَالِفُ كَلَامَ اللهِ.

وَهَذَا جَوَابٌ جَيِّدٌ سَدِيدٌ، وَلَكِنْ لا يَفْهَمُهُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ، فَلَا تَسْتَهِنْ بِهِ، فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت:٣٥].

فَإِنَّ أَعْدَاءَ اللهِ لَهُمُ اعْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَىٰ دِينِ الرُّسُلِ، يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ، مِنْهَا قَوْلُهُمْ: نَحْنُ لا نُشْرِكُ بِاللهِ، بَلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لا يَخْلُق وَلَا يَرْزُق وَلَا يَنْفَع وَلَا يَضُرُّ إِلَا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا ﷺ لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعًا، وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ عَبْدِ القَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ، وَلَكِنْ أَنَا مُذْنِبٌ، وَالصَّالِحُونَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللهِ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللهِ بِهِمْ.

فَجَاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ: وَهُوَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِمَا ذَكَرْتَ، وَمُقِرُّونَ أَنَّ أَوْثَانَهُم لا تُدَبِّرُ شَيْئًا، وَإِنَّمَا أَرَادُوا الجَاهَ وَالشَّفَاعَةَ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ.

فَإِنْ قَالَ: هَؤُلَاءِ الآيَاتِ نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الأَصْنَامَ! كَيْفَ تَجْعَلونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الأَصْنَامِ؟ أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟ فَجَاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ. فَإِنَّهُ إِذَا أَقَرَّ أَنَّ الكُفارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّهَا، وَأَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا مِمَّنْ قَصَدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ -وَلَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِ وَفِعْلِهِمْ بِمَا ذُكِرَ- فَاذْكُرْ لَهُ أَنَّ الكُفَّارَ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ [الإسراء:٥٧]، وَيَدْعُونَ عِيسَىٰ ابنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٧٥ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٧٦﴾ [المائدة:٧٥، ٧٦].

وَاذْكُرْ لَهُ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ:٤٠، ٤١].

وَقَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ۝١١٦﴾ [المائدة:١١٦].



فَقُلْ لَهُ: أَعَرَفْتَ أَنَّ اللهَ كَفَّرَ مَنْ قَصَدَ الأَصْنَامَ، وَكَفَّرَ أَيْضًا مَنْ قَصَدَ الصَّالِحِينَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

فَإِنْ قَالَ: الكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللهَ هُوَ النَّافِعُ، الضَّارُّ، المُدَبِّرُ، لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ، وَالصَّالِحُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ، وَلَكِنْ أَقْصِدُهُمْ، أَرْجُو مِنَ اللهِ شَفَاعَتَهُمْ.

فَالجَوَابُ: أَنَّ هَذَا قَوْلُ الكُفَّارِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

❀❀❀

التعليق

وأَقُولُ: إنَّ الشِّركَ باللهِ سَبَبُه تَقدِيسُ بَعضِ المَخلُوقِين، والغُلُوُّ فِيهِم، وزِيادَتُهم عَن حَقِّهِم، أَو دَعْوىٰ أنَّ الشَّفاعَةَ لَهُم، وهَذِه كُلُّها قَد رَدَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْها بقَوْلِه تَعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [النساء:١٧١]، ورَدَّ علىٰ مَنْ زَعَم أنَّ الشَّفاعَةَ لِأُولَئِك المُشرِكِينَ بقَولِهِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ [الزمر:٤٤]، ومَا أَشْبَه ذَلكَ مِن الحُجَج الَّتي ذَكَرَها القُرآنُ، وَرَدَّ عَلَيْها.

فَما علَيْك إلَّا أنْ تَقرَأَ القُرْآنَ، وَتَقرَأَ التَّفسِيرَ المَروِيَّ عَن الصَّحابَةِ، ثُمَّ

تَتَأَمَّل فِيهَا، فإِنَّ مَا أَدْلَىٰ بِه أَهلُ البَاطِلِ في هَذا الزَّمَن شَبِيهٌ لِمَا أَدْلَىٰ بِه أَهْلُ البَاطِلِ في الأَزمِنَةِ السَّابِقَة، واللهُ تَعالَىٰ يَقولُ: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾[الذاريات:٥٣].

أكبر شبه أهل الباطل

وَاعْلَمْ أنَّ هَذِهِ الشُّبَهَ الثَّلَاثَ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ وَضَّحَهَا لَنَا فِي كِتَابِهِ، وَفَهِمْتَهَا فَهْمًا جَيِّدًا، فَمَا بَعْدَهَا أَيْسَرُ مِنْهَا.

❀❀❀

التعليق

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين، وَبَعدُ: فإِنَّ شُبهَةَ المُشرِكِين الَّذينَ يَعبُدُونَ غَيْرَ اللهِ مِن الأَولِياءِ وَالصَّالِحينَ، وَيَزعُمُونَ أنَّهم شُفعاءُ لَهُم عِند اللهِ، ويَزعُمُون أنَّ الشِّركَ إنَّما هُو عِبادَةُ الأَصنامِ، وأنَّهُم لَمْ يَعبُدوا الأصْنَامَ، ويَزعُمُون أنَّ الَّذينَ بُعِث فِيهِم رَسولُ اللهِ ﷺ مَا كَانُوا يَشهَدُون أنْ لَا إِلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ، **فانْحَصَرَت الشُّبهَةُ فِي ثَلاثَةِ أُمورٍ، وَهِي:**

١- أنَّ المُشرِكِين كَانُوا يَعبُدون الأَصنامَ، وهُم يَعبُدُون الأَولِيَاءَ، وزَعَمُوا أنَّ الفَرْق بَيْن الأَولياءِ وَالأَنْبياءِ فَرْقٌ وَاضِحٌ، يُبِيحُ لَهُم عِبادَةَ الأَوْلياءِ، والصَّالِحِين، والأَنْبياءِ، فَيُرَدُّ عَليْهِم:

أَوَّلًا: أنَّ المُشرِكِينَ الَّذين قَاتَلُهم رَسُولُ اللهِ ﷺ كَانَ مِنْهُم مَن يَعبُد

المَلائِكةَ، وَمِنْهُم مَنْ يَعبُد الأَولياءَ والأَنبياءَ، ومِنْهم مَن يَعبُدُ عِيسَىٰ ابنَ مَرْيَمَ وأُمَّه، فَقَاتَلُهم بِدُون تَفريقٍ بَيْن مَن يَعبُد الأَنبياءَ وَالأَوْلياءَ، وَبَيْن مَن يَعبدُ الأَصنامَ.

بَل قَد بَيَّن اللهُ في القُرآنِ في مَواضِعَ كَثيرةٍ أنَّ مَن عَبَد غَيرَ اللهِ فَهُو مُشرِكٌ، بِدُونِ فَرقٍ بَيْن الأَولياءِ، وَالأَنبياءِ، والمَلائِكةِ، وبَيْن الأَصنَام.

كَما بَيَّنَه شَيْخُ الإِسلامِ بِقَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]، فَتَبَيَّن أنَّ مَن عَبَد المَلائِكَةَ، أَو الجِنَّ، أَو الأَصنَامَ، فَهُو مُشرِكٌ؛ إِذْ إِنَّ العِبَادَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا للهِ.

ثَانِيًا (أَي: الشُّبْهَة الثَّانِيَة): وَهُو زَعمُهم أنَّ المُشرِكِين مَا كَانُوا يَشهَدُون أنْ لَا إِلهَ إلَّا اللهُ وَأنَّ مُحمَّدًا رسُولُ اللهِ، وهُم يَشهَدُون هَذه الشَّهادَةَ، وَهُم مُقِرُّونَ بِأَنَّ أَوثَانَهُم لَا تُدَبِّرُ شَيْئًا، إنَّما أَرادُوا مِنْهُم الجَاهَ والشَّفاعَةَ، فدَلَّ ذَلكَ عَلىٰ أَنَّ عِبادَةَ غَيْرِ اللهِ كُلُّها شِركٌ وَكُفرٌ، وأَنَّ المُسْلِمَ الَّذي يَشهَدُ أَنْ لَا إِلهَ إلَّا اللهُ، وَقَد سَمِع القُرآنَ وحُجَجَه، ثمَّ بَعد ذَلكَ يَدعُو غَيْر الله مِن الأَولياءِ وَالصَّالِحِين، فإِنَّه أَبْعَدُ لَه؛ لِكَونِه يَعبُدُ غَيْرَ اللهِ عَلىٰ عِلْمٍ.

ثَالِثًا: أَنَّهم مُحتَجُّونَ أَنَّهم لَمْ يُرِيدُوا مِنْهُم الإِحياءَ وَالإِماتَةَ، أَو القُدْرَة عَلىٰ الغَيْب، وإنَّما أَرادُوا مِنْهُمُ الشَّفاعَةَ، فيُقالُ لَهُم: إنَّ الشَّفاعَةَ لَا تُطْلَبُ إِلَّا



مِنَ اللهِ، فَهُو الَّذي يَمْلِكُها دُونَ سِواهُ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾[الزمر:٤٤].

فالشَّفاعَةُ لَا يَجوزُ أَنْ تُطْلَبَ مِمَّن لَا يَملِكُها، وَقَد تَبَيَّن في هَذا بُطلانُ حُجَجِهِم، وعَدَمُ بَقاءِ أَيِّ حُجَّةٍ لَهُم فِيما عَمِلُوه مِن عِبادَةِ غَيْرِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

وبِاللهِ التَّوفيقُ.

حق الله على العباد

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللهَ، وَهَذَا الالْتِجَاءُ إِلَى الصَّالِحِينَ وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ.

فَقُلْ لَهُ: أَنْتَ تُقِرُّ أَنَ اللهَ فَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ العِبَادَةِ للهِ، وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ؟ فَإِذَا قَالَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: بَيِّنْ لِيَ هَذَا الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ، وَهُوَ إِخْلاصُ العِبَادَةِ للهِ وَحْدَهُ، وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ. فَإِن كَانَ لَا يَعْرِفُ العِبَادَةَ، وَلَا أَنْوَاعَهَا، فَبَيِّنْهَا لَهُ بِقَوْلِكَ: قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

فَإِذَا أَعْلَمْتَهُ بِهَذَا، فَقُلْ لَهُ: هَلْ عَلِمْتَ هَذَا عِبَادَةً للهِ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ. وَالدُّعَاءُ مُخُّ العِبَادَةِ.

فَقُلْ لَهُ: إِذَا أَقْرَرْتَ أَنَّهَا عِبَادَةٌ، وَدَعَوْتَ اللهَ لَيْلًا وَنَهَارًا، خَوْفًا وَطَمَعًا، ثُمَّ دَعَوْتَ فِي تِلْكَ الحَاجَةِ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَهُ، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي عِبَادَةِ اللهِ غَيْرَهُ؟ فَلَا بُدَّ أَنَّهُ يَقُولُ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: فَإِذَا عَمِلْتَ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر:٢]، وَأَطَعْتَ اللهَ، وَنَحَرْتَ لَهُ، هَلْ هَذَا عِبَادَةٌ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: إِذَا نَحَرْتَ لِمَخْلُوقٍ (نَبِيٍّ أَوْ جِنِّيٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا)، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي هَذِهِ العِبَادَةِ غَيْرَ اللهِ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يُقِرَّ وَيَقُولَ: نَعَمْ.

وَقُلْ لَهُ أَيْضًا: المُشْرِكُونَ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ القُرْآنُ، هَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ المَلَائِكَةَ، وَالصَّالِحِينَ، وَاللَّاتَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ؟ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: نَعَمْ.

فَقُلْ لَهُ: وَهَلْ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَّا فِي الدُّعَاءِ وَالذَّبْحِ، وَالالتِجَاءِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَهُمْ مُقِرُّونَ أَنَّهُمْ عَبِيدُهُ وَتَحْتَ قَهْرِهِ، وَأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الأَمْرَ، وَلَكِنْ دَعَوْهُمْ وَالْتَجَؤُوا إِلَيْهِمْ لِلجَاهِ وَالشَّفَاعَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جِدًّا.

❁❁❁

التعليق

إِذَا قَالَ: أَنَا لَا أَعبُدُ إِلَّا اللهَ، وهَذا الالْتِجاءُ إِلَىٰ الصَّالِحينَ ودُعاؤُهُم لَيس عِبادَةً.

فَقُل لَهُ: أَتُقِرُّ أَنَّ اللهَ فَرَضَ عَلَيكَ إِخلاصَ العِبادَةِ للهِ وَحْدَه، وَهُو حَقُّه عَلَيكَ؟ فإِنْ كَانَ لَا يَعرِفُ العِبادَةَ وأَنْواعَها، فَبَيِّنْها لَهُ، يَعنِي أَنَّك تُبَيِّن لَه أَنواعَ العِبادَةِ، وأَنَّ أَنواعَ العِبادَة هِي الصَّلاةُ، والدُّعاءُ، والخَوفُ، والرَّجاءُ، والخَشيَةُ، والإِنابَةُ، والرَّغبَةُ إِلَيْه فِي تَحقيقِ مَا تَطْلُب، والرَّهبَةُ مِنْه، أَيْ: مِن عَذابِهِ فِي الآخِرَةِ، وسَخَطِه عَلَيْكَ، هَذِه هِي أَنواعُ العِبادَةِ، ومِنْها الذَّبحُ، والنَّذرُ.

فنَقُولُ لَه: مَن دَعا غَيْرَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ فِي جَلْب نَفْعٍ لَا يَقدِرُ عَلَيْه إِلَّا اللهُ، أَو دَفْعِ ضُرٍّ لَا يَقْدِر عَلَيْه إِلَّا اللهُ، فَهَلْ هَذَا يُعتَبر قَد عَبَد غَيْرَ اللهِ أَمْ لَا؟

والجَوابُ: أنَّه قَد عَبَد غَيرَ اللهِ بدَعْوَتِه غَيرَه، والالْتجاءِ إلَيْه، مَع أنَّ اللهَ سُبحانَه يَقولُ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥]، وَقَوْله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر:٦٠].

فَإذَا أَقَرَّ بِهَذا، وَاعْتَرَف بأَنَّه شِركٌ، فَقُل لَه: مَا إِخلاصُ العِبادَةِ؟ فإِنْ كَانَ يَجهَل الإِخلاصَ فَقُل لَه: إنَّ الإِخلاصَ هُو أنْ تَعبُدَ اللهَ وَحدَه دُونَ سِواه بأَنْ تُفرِدَه بصَلاتِكَ وصِيامِكَ ودُعائكَ، ورَغْبَتِك، ورَهْبَتِك، وجَميعِ أَنواعِ العِبادَةِ، هَذا هُو الإِخلاصُ، وهَذِه هِي العِبادَةُ.

وَكَما قُلْنا: إنَّ مَن دَعا مَخلُوقًا مِن المَخلُوقِين فإنَّه قَد هَدَم ذَلكَ الإِخلاصَ وأَبْطَلَه، وكَانَ بذَلِكَ مُشرِكًا مُستَحِقًّا للوَعيدِ الَّذي تَوَعَّدَ اللهُ بِه المُشْرِكينَ بِقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾ [المائدة:٧٢]، فَلو ذَبَحْتَ عَلىٰ اسْمِ مَخلُوقٍ بأَنْ تَقولَ: هَذا للهِ ثُمَّ لِعَبْد القَادِر الجِيلانِي، فَهُو لِعَبْد القَادِر الجِيلانِي وَلَيْس للهِ؛ لِأنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يَقولُ في الحَديثِ القُدُسِيِّ: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(١).

فَإِذَا أَقَرَّ بِهذَا فَقُل لَهُ: هَل المُشرِكُون الَّذين بُعِثَ فِيهِم رَسُولُ اللهِ ﷺ، ونَزَلَ فِيهِمُ القُرآنُ، هَل كَانُوا يَعبُدُون المَلائِكَةَ، والصَّالِحِينَ، وَالأَصنَامَ، ويَدْعُونَ هَذِه المَعبوداتِ مِن دُونِ اللهِ، ويَذبَحُونَ لَها، ويَنْذِرونَ؟ فإِنْ قَالَ:

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نَعَم، فَقُل لَه: هَل كَانُوا بذَلكَ مُشركِينَ يَستَحِقُّون مَا تَوَعَّد اللهُ به المُشْركينَ؟ فإذَا قَالَ: نَعَم، فَقُل لَه: وَبِهذا فَقَد اعْتَرَفْتَ أنَّ صَرْفَ شَيءٍ مِن هَذِه العِبادَاتِ لغير الله شِرْكٌ، مُوجِبٌ لِتَحْرِيم اللهِ عَزَّوَجَلَّ الجَنَّةَ علىٰ فَاعِله، واسْتحقَاقِه لِغَضَب اللهِ ومَقْتِه، ومِنْ أَجْل ذَلكَ أَباحَ اللهُ قَتْلَ أُولَئِك المُشرِكِين إزهاقَ أَرواحِهِم، وسَبْيَ نِسائِهم وغَنِيمَةَ أَموالِهم مِنْ أَجْل أَنَّهُم أَشرَكُوا باللهِ شِرْكًا أَكْبَرَ يُوجِبُ عَلَيْهِم ذَلكَ.

وباللهِ التَّوفِيقُ.

تتمة رسالة «كشف الشبهات»(١)

فَإِنْ قَالَ: أَتُنْكِرُ شَفَاعَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَبْرَأُ مِنْهَا؟

فَقُلْ: لَا أُنْكِرُهَا، وَلَا أَتَبَرَّأُ مِنْهَا، بَلْ هُوَ ﷺ الشَّافِعُ المُشَفَّعُ، وَأَرْجُو شَفَاعَتَهُ.

وَلَكِنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا للهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤].

وَلَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِ اللهِ، كَمَا قَالَ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وَلَا يَشْفَعُ فِي أَحَدٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ فِيهِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨].

وَهُوَ لَا يَرْضَىٰ إِلَّا التَّوْحِيدَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٨٥].

فَإِذَا كَانَتِ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا للهِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، وَلَا يَشْفَعُ النَّبِيُّ ﷺ

(١) أضفنا بقية متن رسالة «كشف الشبهات» وإن لم يتناولها الشيخ أحمد النجمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتعليق؛ لتتم الفائدة بذكرها كاملة.

وَلَا غَيْرُهُ فِي أَحَدٍ حَتَّىٰ يَأْذَنَ اللهُ فِيهِ، وَلَا يَأْذَنُ إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ -تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا للهِ، فَأَطْلُبُهَا، مِنْهُ فَأَقُولُ: اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي شَفَاعَتَهَ اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ، وَأَمْثَالِ هَذَا.

فَإِنْ قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ، وَأَنَا أَطْلُبُهَا مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ.

فَالجَوَابُ: أَنَّ اللهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ، وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨]، فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللهَ أَنْ يُشَفِّعَ نَبِيَّهُ فِيكَ، فَأَطِعْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن:١٨].

وَأَيْضًا؛ فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيهَا غَيْرُ النَّبِيِّ ﷺ، فَصَحَّ أَنَّ المَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالأَوْلِيَاءَ يَشْفَعُونَ، وَالأَفْرَاطَ يَشْفَعُونَ، أَتَقُولُ: إِنَّ اللهَ أَعْطَاهُمْ الشَّفَاعَةَ فَأَطْلُبُهَا مِنْهُمْ؟ فَإِن قُلْت هَذَا، رَجَعْتَ إِلَىٰ عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَإِنْ قُلْت: لَا، بَطَلَ قَوْلُكَ: أَعْطَاهُ اللهُ الشَّفَاعَةَ، وَأَنَا أَطْلُبُهَا مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا، حَاشَا وَكَلَّا؛ وَلَكِنَّ الالتِجَاءَ إِلَىٰ الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ.

فَقُلْ لَهُ: إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مَنْ تَحْرِيمِ الزِّنَا، وَتُقِرُّ أَنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُهُ، فَمَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي حَرَّمَهُ اللهُ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ؟ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي.

فَقُلْ لَهُ: كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟

أَمْ كَيْفَ يُحَرِّمُ اللهُ عَلَيْكَ هَذَا، وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ، وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ، وَلَا تَعْرِفُهُ، أَتَظُنُّ أَنَّ اللهَ يُحَرِّمُهُ، وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟

فَإِنْ قَالَ: الشِّرْكُ عبادَةُ الأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الأَصْنَامَ.

فَقُلْ لَهُ: مَا مَعْنَىٰ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ؟ أَتَظُنُّ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الأَخْشَابَ وَالأَحْجَارَ تَخْلُقُ، وَتَرْزُقُ، وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاهَا؟ فَهَذَا يُكَذِّبُهُ القُرْآنُ.

وَإِنْ قَالَ: هُوَ قَصَدَ خَشَبَةً، أَوْ حَجَرًا، أَوْ بِنْيَةً عَلَىٰ قَبْرٍ أَوْ غَيْرِهِ، يَدْعُونَ ذَلِكَ، وَيَذْبَحُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: إِنَّهُ يُقَرِّبُنَا إِلَىٰ اللهِ زُلْفَىٰ، وَيَدْفَعُ اللهُ عَنَّا بِبَرَكَتِهِ، أَوْ يُعْطِينَا بِبَرَكَتِهِ.

فَقُلْ: صَدَقْتَ، وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الأَحْجَارِ وَالأَبْنِيَةِ الَّتِي عَلَىٰ القُبُورِ وَغَيْرِهَا، فَهَذَا أَقَرَّ أَنَّ فِعْلَهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ، فَهُوَ المَطْلُوبُ.

وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا: قَوْلُكَ: الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ، هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا، وَأَنَّ الاعْتِمَادَ عَلَىٰ الصَّالِحِينَ وَدعاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؟ فَهَذَا يَرُدُّهُ مَا ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ كُفْرِ مَنْ تَعَلَّقَ عَلَىٰ المَلَائِكَةِ، أَوْ عِيسَىٰ، أَوِ الصَّالِحِينَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُقِرَّ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ، فَهُوَ الشِّرْكُ المَذْكُورُ فِي القُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ المَطْلُوبُ.

وَسِرُّ المَسْأَلَةِ: أَنَّهُ إِذَا قَالَ: أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللهِ.

فَقُلْ لَهُ: وَمَا الشِّرْكُ بِاللهِ؟ فَسِّرْهُ لِي.

فَإِنْ قَالَ: هُوَ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ.

فَقُلْ: وَمَا مَعْنَىٰ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ؟ فَسِّرْهَا لِي.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ.

فَقُلْ: مَا مَعْنَىٰ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ؟ فَسِّرْهَا لِي.

فَإِنْ فَسَّرَهَا بِمَا بَيَّنَهُ القُرْآنُ، فَهُوَ المَطْلُوبُ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ، فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئًا وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ، وَإِنْ فَسَّرَ ذَلِكَ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ، بَيَّنْتَ لَهُ الآيَاتِ الوَاضِحَاتِ فِي مَعْنَىٰ الشِّرْكِ بِاللهِ، وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا، وَيَصِيحُونَ فِيهِ كَمَا صَاحَ إِخْوَانُهُمْ حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص:٥].

فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَ بِدُعَاءِ المَلَائِكَةِ وَالأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّمَا يَكْفُرُونَ لِمَا قَالُوا: المَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ، فَإِنَّا لَمْ نَقُلْ: عَبْدُ القَادِرِ ابْنُ اللهِ، وَلَا غَيْرُهُ.

فَالجَوَابُ: أَنَّ نِسْبَةَ الوَلَدِ إِلَىٰ اللهِ كُفْرٌ مُسْتَقِلٌّ، قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١].

وَالأَحَدُ: الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ.

وَالصَّمَدُ: المَقْصُودُ فِي الحَوَائِجِ، فَمَنْ جحَدَ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ، وَلَوْ لَمْ يَجْحَدِ السُّورَةَ.

وَقَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ﴾ [المؤمنون:٩١]، فَفَرَّقَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ، وَجَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا كُفْرًا مُسْتَقِلًّا، وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ﴾ [الأنعام:١٠٠]، فَفَرَّقَ بَيْنَ كُفْرَيْنِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ هَذَا أَيْضًا: أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِدُعَاءِ اللَّاتِ مَعَ كَوْنِهِ رَجُلًا صَالِحًا، لَمْ يَجْعَلُوهُ ابْنَ اللهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعِبَادَةِ الجِنِّ لَمْ يَجْعَلُوهُمْ كَذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا العُلَمَاءُ فِي جَمِيعِ المَذَاهِبِ الأَرْبَعَةِ يَذْكُرُونَ فِي (بَاب حُكْمِ المُرْتَدِّ) أَنَّ المُسْلِمَ إِذَا زَعَمَ أَنَّ للهِ وَلَدًا فَهُوَ مُرْتَدٌّ، وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الوُضُوحِ.

وَإِنْ قَالَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس:٦٢]، فَقُلْ: هَذَا هُوَ الحَقُّ؛ وَلَكِنْ لَا يُعْبَدُونَ.

وَنَحْنُ لَمْ نَذْكُرْ إِلَّا عِبَادَتَهُمْ مَعَ اللهِ، وَشِرْكهمْ مَعَهُ، وَإِلَّا فَالوَاجِبُ عَلَيْكَ حُبُّهُمْ وَاتِّبَاعُهُمْ، وَالإِقْرَارُ بِكَرَامَتِهِمْ، وَلَا يَجْحَدُ كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ إِلَّا أَهْلُ البِدَعِ وَالضَّلَالِ، وَدِينُ اللهِ وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، وَهُدًى بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ، وَحقٌّ بَيْنَ بَاطِلَيْنِ.

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ هَذَا الَّذِي يُسَمِّيهِ المُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا (كَبِير الاعْتِقَادِ) هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي نَزَلَ فِيهِ القُرْآنُ، وَقَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ عَلَيْهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ شِرْكَ الأَوَّلِينَ أَخَفُّ مِنْ شِرْكِ أَهْلِ زَمَانِنَا بِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الأَوَّلِينَ لَا يُشْرِكُونَ، وَلَا يَدْعُونَ المَلَائِكَةَ وَالأَوْلِيَاءَ وَالأَوْثَانَ مَعَ اللهِ إِلَّا فِي الرَّخَاءِ، وَأَمَّا فِي الشِّدَّةِ فَيُخْلِصُونَ للهِ الدُّعَاءَ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ۝٦٧﴾ [الإسراء:٦٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١﴾ [الأنعام:٤٠، ٤١].

وَقَوْلُهُ: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا﴾ [الزمر:٨] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر:٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان:٣٢].

فَمَنْ فَهِمَ هَذِهِ المَسْأَلَةَ الَّتِي وَضَّحَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ (وَهِيَ أَنَّ المُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُونَ اللهَ، وَيَدْعُونَ غَيْرَهُ فِي الرَّخَاءِ، وَأَمَّا فِي الضَّرَّاءِ وَالشِّدَّةِ فَلَا يَدْعُونَ إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَيَنْسَوْنَ سَادَتَهُمْ، تَبَيَّنَ لَهُ الفَرْقَ بَيْنَ شِرْكِ أَهْلِ زَمَانِنَا وَشِرْكِ الأَوَّلِينَ.

وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ يَفْهَمُ قَلْبُهُ هَذِهِ المَسْأَلَةَ فَهْمًا رَاسِخًا؟ وَاللهُ المُسْتَعَانُ.

الأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الأَوَّلِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ أُنَاسًا مُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللهِ: إِمَّا أَنْبِيَاءَ، وَإِمَّا أَوْلِيَاءَ، وَإِمَّا مَلَائِكَةً، أَوْ يَدْعُونَ أَشْجَارًا أَوْ أَحْجَارًا مُطِيعَةً للهِ لَيْسَتْ عَاصِيَةً.

وَأَهْلُ زَمَانِنَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ أُنَاسًا مِنْ أَفْسَقِ النَّاسِ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَحْكُونَ عَنْهُمُ الفُجُورَ؛ مِنَ الزِّنَا، وَالسَّرِقَةِ، وَتَرْكِ الصَّلَاةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالَّذِي يَعْتَقِدُ فِي الصَّالِحِ، أَوِ الَّذِي لَا يَعْصِي (مِثْل: الخَشَبِ وَالحَجَرِ- أَهْوَنُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ فِيمَنْ يُشَاهَدُ فِسْقُهُ، وَفَسَادُهُ، وَيُشْهَدُ بِهِ.

إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصَحُّ عُقُولًا، وَأَخَفُّ شِرْكًا مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَهَا عَلَىٰ مَا ذَكَرْنَا، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبَهِهِمْ، فَأَصْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا.

وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ القُرْآنُ لَا يَشْهَدُونَ أَنْ (لَا إِلَهَ إِلَّا

اللهُ)، وَيُكَذِّبُونَ الرَّسُولَ ﷺ، وَيُنْكِرُونَ البَعْثَ، وَيُكَذِّبُونَ القُرْآنَ، وَيَجْعَلُونَهُ سِحْرًا، وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَنُصَدِّقُ القُرْآنَ، وَنُؤْمِنُ بِالبَعْثِ، وَنُصَلِّي، وَنَصُومُ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَنَا مِثْلَ أُولَئِكَ؟!

فَالجَوَابُ: أَنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ العُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ وَكَذَّبَهُ فِي شَيْءٍ، أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الإِسْلامِ، وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بِبَعْضِ القُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ، كَمَنْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلاةِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ الصَّوْم، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ الحَجَّ.

وَلَمَّا لَمْ يَنْقَدْ أَنَاسٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِلْحَجِّ، أَنْزَلَ اللهُ فِي حَقِّهِمْ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران:٩٧].

وَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ، وَجَحَدَ البَعْثَ، كَفَرَ بِالإِجْمَاعِ، وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء:١٥١].

فَإِذَا كَانَ اللهُ قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابهِ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، فَهُوَ الكَافِرُ حَقًّا، وَأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ مَا ذُكِرَ، زَالَتِ الشُّبْهَةُ، وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْض أَهْلِ الإِحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْنَا.

وَيُقَالُ أَيْضًا: إِنْ كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ ﷺ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلاةِ، أَنَّهُ كَافِرٌ حَلَالُ الدَّمِ وَالمَالِ بِالإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا البَعْثَ، وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وُجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ، وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كُلِّهِ، لَا تَخْتَلِفُ المَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ القُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا.

فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالحَجِّ، فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ؟؟ كَفَرَ وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لَا يَكْفُرُ؟! سُبْحَانَ اللهِ، مَا أَعْجَبَ هَذَا الجَهْلَ!

وَيُقَالُ أَيْضًا: هَؤُلَاءِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ، وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُؤَذِّنُونَ وَيُصَلُّونَ.

فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ. فَقُلْ: هَذَا هُوَ المَطْلُوبُ، إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا إِلَىٰ رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَفَرَ، وَحَلَّ مَالُهُ وَدَمُهُ وَلَمْ تَنْفَعْهُ الشَّهَادَتَانِ وَلَا الصَّلَاةُ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ، أَوْ يُوسُفَ، أَوْ صَحَابِيًّا، أَوْ نَبِيًّا إِلَىٰ مَرْتَبَةِ جَبَّارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ! سُبْحَانَ اللهِ، مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ! ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الروم:٥٩].

وَيُقَالُ أَيْضًا: الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الإِسْلَامَ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ، وَتَعَلَّمُوا العِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنِ اعْتَقَدُوا فِي عَلِيٍّ مِثْلَ الاعْتِقَادِ فِي يُوسُفَ وشَمْسَانَ وَأَمْثَالِهِمَا، فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَىٰ قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟ أَتَظُنُّونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ يُكَفِّرُونَ المُسْلِمِينَ؟ أَمْ

تَظُنُّونَ أَنَّ الاعْتِقَادَ فِي تَاجٍ وَأَمْثَالِهِ لَا يَضُرُّ، وَالاعْتِقَادَ فِي عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ يُكَفِّرُ؟!

وَيُقَالُ أَيْضًا: بَنُو عُبَيْدٍ القَدَّاحِ الَّذِينَ مَلَكُوا المَغْرِبَ وَمِصْرَ فِي زَمَانِ بَنِي العَبَّاسِ، كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيَدَّعُونَ الإِسْلَامَ، وَيُصَلُّونَ الجُمُعَةَ وَالجَمَاعَةَ، فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ، أَجْمَعَ العُلَمَاءُ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلَادَهُمْ بِلَادُ حَرْبٍ، وَغَزَاهُمُ المُسْلِمُونَ حَتَّىٰ اسْتَنْقَذُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ بُلْدَانِ المُسْلِمِينَ.

وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كَانَ الأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرَّسُولِ وَالقُرْآنِ، وَإِنْكَارِ البَعْثِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَمَا مَعْنَىٰ البَابِ الَّذِي ذَكَرَ العُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ: (بَابُ حُكْمِ المُرْتَدِّ)؟

وَهُوَ المُسْلِمُ الَّذِي يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلامِهِ.

ثُمَّ ذَكَرُوا أَنْوَاعًا كَثِيرَةً، كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يُكَفِّرُ وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ ذَكَرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا، مَثَل كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا بِلِسَانِهِ دَوْنَ قَلْبِهِ، أَوْ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا عَلَىٰ وَجْهِ المَزْحِ وَاللَّعِبِ.

وَيُقَالُ أَيْضًا: الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة:٧٤]، أَمَا سَمِعْتَ اللهَ كَفَّرَهُمْ بِكَلِمَةٍ مَعَ كَوْنِهِمْ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيُجَاهِدُونَ مَعَهُ، وَيُصَلُّونَ وَيُزَكُّونَ وَيَحُجُّونَ وَيُوَحِّدُونَ؟!

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ

تَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ ﴾ [التوبة:٦٦]، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَرَّحَ اللهُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، قَالُوا كَلِمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَىٰ وَجْهِ المَزْحِ، فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الشُّبْهَةَ، وَهِيَ قَوْلُهُمْ: تُكَفِّرُونَ منَ المُسْلِمِينَ أُنَاسًا يَشْهَدُونَ أَنْ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، وَيُصَلُّونَ وَيَصُومُونَ، ثُمَّ تَأَمَّلْ جَوَابَهَا؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ مَا فِي هَذِهِ الأَوْرَاقِ.

وَمنَ الدَّلِيلِ عَلَىٰ ذَلِكَ أَيْضًا: مَا حَكَىٰ اللهُ عَنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ إِسْلامِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ، أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَىٰ: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ ﴾ [الأعراف:١٣٨].

وَقَوْلُ أُنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ: «**اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، فَحَلَفَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ هَذَا نَظِيرُ قَوْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا**»[(١)].

وَلَكِنْ لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِهَا عِنْدَ هَذِهِ القِصَّةِ:

وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ»، لَمْ يَكْفُرُوا.

فَالجَوَابُ أَن نَقُولَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَبِيَّ ﷺ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا.

وَكَذَلِكَ لَا خِلَافَ فِي أَنَّ الَّذِينَ نَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ وَاتَّخَذُوا ذَاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لَكَفَرُوا، وَهَذَا هُوَ المَطْلُوبُ، وَلَكِنْ هَذِهِ القِصَّةُ تُفِيدُ أَنَّ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠) من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٤٠٨).

المُسْلِمَ، بَلْ العَالِمَ قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاع مِنَ الشِّرْكِ لَا يَدْرِي عَنْهَا، فَتُفِيدُ التَّعَلُّمَ وَالتَّحَرُّزَ، وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الجَاهِلِ: «التَّوْحِيدُ فَهِمْنَاهُ» أَنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الجَهْلِ وَمَكَائِدِ الشَّيْطَانِ.

وَتُفِيدُ أَيْضًا أَنَّ المُسْلِمَ المُجْتَهِدَ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَام كفر وَهُوَ لَا يَدْرِي، فَنُبِّهَ عَلَىٰ ذَلِكَ، فَتَابَ مِنْ سَاعَتِهِ، أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ، كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَالَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ.

وَتُفِيدُ أَيْضًا أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ يُغَلَّظُ عَلَيْهِ الكَلَامُ تَغْلِيظًا شَدِيدًا، كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَلِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ أُخْرَىٰ: يَقُولُونَ: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنْكَرَ عَلَىٰ أَسَامَةَ قَتلَ من قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[1]، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[2] وَأَحَادِيثُ أُخَرُ فِي الكَفِّ عَمَّنْ قَالَهَا.

وَمُرَادُ هَؤُلَاءِ الجَهَلَةِ أَنَّ مَنْ قَالَهَا لَا يَكْفُرُ، وَلَا يُقْتَلُ وَلَوْ فعَلَ مَا فَعَلَ.

فَيُقَالُ لِهَؤُلَاءِ المُشْرِكِينَ الجُهَّالِ: مَعْلُومٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلَ اليَهُودَ وَسَبَاهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

وَأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَاتلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُصَلُّونَ وَيَدَّعُونَ الإِسْلَامَ.

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ بِالنَّارِ، وَهَؤُلَاءِ الجَهَلَةُ مُقِرُّونَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦) من حديث أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ البَعْثَ كَفَرَ وَقُتِلَ، وَلَوْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَأَنَّ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ كَفَرَ وَقُتِلَ وَلَوْ قَالَهَا، فَكَيْفَ لَا تَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ فَرْعًا مِنَ الفُرُوعِ، وَتَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ التَوْحِيدَ الَّذِي هُوَ أَصْلُ دِينِ الرُّسُلِ وَرَأْسُهُ؟ وَلَكِنَّ أَعْدَاءَ اللهِ مَا فَهِمُوا مَعْنَىٰ الأَحَادِيثِ.

فَأَمَّا حَدِيثُ أُسَامَةَ: فَإِنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا ادَّعَىٰ الإِسْلَامَ بِسَبَبِ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ مَا ادَّعَىٰ الإِسْلَامَ إِلَّا خَوْفًا عَلَىٰ دَمِهِ وَمَالِهِ.

وَالرَّجُلُ إِذَا أَظْهَرَ الإِسْلَامَ، وَجَبَ الكَفُّ عَنْهُ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ مِنْهُ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ. وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي ذَلِكَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]،أَيْ: فَتَثَبَّتُوا، فَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَجِبُ الكَفُّ عَنْهُ وَالتَّثَبُّتُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يُخَالِفُ الإِسْلَامَ قُتِلَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، وَلَوْ كَانَ لَا يُقْتَلُ إِذَا قَالَهَا لَمْ يَكُنْ لِلْتَّثَبُّتِ مَعْنًىٰ.

وَكَذَلِكَ الحَدِيثُ الآخَرُ وَأَمْثَالُهُ، مَعْنَاهُ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ التَّوْحِيدَ وَالإِسْلَامَ، وَجَبَ الكَفُّ عَنْهُ إِلَىٰ أَنْ يَتَبَيَّنَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ.

وَالدَّلِيلُ عَلَىٰ هَذَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ!**»[(١)]، وَقَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»[(٢)]، وهُوَ الَّذِي قَالَ فِي الخَوَارِجِ: «**أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**»[(٣)]، «**لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٦٩)، ومسلم (٩٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»[(١)] مَعَ كَوْنِهِمْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ عِبَادَةً وَتَهْلِيلًا وَتَسْبِيحًا، حَتَّىٰ إِنَّ الصَّحَابَةَ يَحْقِرُونَ صَلَاتَهُمْ عِنْدَهُمْ، وَهُمْ تَعَلَّمُوا العِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَلَمْ تَنْفَعْهُمْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَلَا كَثْرَةُ العِبَادَةِ، وَلَا ادِّعَاءُ الإِسْلامِ لَمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُخَالَفَةُ الشَّرِيعَةِ.

وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ قِتَالِ اليَهُودِ، وَقِتَالِ الصَّحَابَةِ بَنِي حَنِيفَةَ.

وَكَذَلِكَ أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَغْزُوَ بَنِي المُصْطَلِقْ لَمَّا أَخْبَرَهُ رَجُلٌ أَنَّهُمْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ، حَتَّىٰ أَنْزَلَ اللهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات:٦]، وَكَانَ الرَّجُلُ كَاذِبًا عَلَيْهِمْ.

وَكُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الأَحَادِيثِ الَّتِي احْتَجُّوا بِهَا مَا ذَكَرْنَاهُ.

وَلَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرَىٰ: وَهُوَ مَا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ يَسْتَغِيثُونَ بِآدَمَ، ثُمَّ بِنُوحٍ، ثُمَّ بِإِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ بِمُوسَىٰ، ثُمَّ بِعِيسَىٰ، فَكُلُّهُمْ يَعْتَذِرُونَ حَتَّىٰ يَنْتَهُوا إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»[(٢)].

قَالُوا: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الاسْتِغَاثَةَ بِغَيْرِ اللهِ لَيْسَتْ شِرْكًا.

وَالجَوَابُ أَنَّ نَقُولَ: سُبْحَانَ مَنْ طَبَعَ عَلَىٰ قُلُوبِ أَعْدَائِهِ!

فَإِنَّ الاسْتِغَاثَةَ بِالمَخْلُوقِ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَا نُنْكِرُهَا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

قِصَّةِ مُوسَىٰ: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥].

وَكَمَا يَسْتَغِيثُ الإِنْسَانُ بِأَصْحَابِهِ فِي الحَرْبِ أَوْ غَيْرِهِ فِي أَشْيَاءَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا المَخْلُوقُ.. وَنَحْنُ أَنْكَرْنَا اسْتِغَاثَةَ العِبَادَةِ الَّتِي يَفْعَلُونَهَا عِنْدَ قُبُورِ الأَوْلِيَاءِ، أَوْ فِي غَيْبَتِهِمْ فِي الأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللهُ.

إِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ: فَاسْتِغَاثَتُهُمْ بِالأَنْبِيَاءِ يَوْمَ القِيَامَةِ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَدْعُوا اللهَ أَنْ يُحَاسِبَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَسْتَرِيحَ أَهْلُ الجَنَّةِ مِنْ كَرْبِ المَوْقِفِ.

وَهَذَا جَائِزٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَذَلِكَ أَنْ تَأْتِيَ عِنْدَ رَجُلٍ صَالِحٍ حَيٍّ يُجَالِسُكَ وَيَسْمَعُ كَلَامَكَ، فَتَقُولَ لَهُ: ادْعُ اللهَ لِي، كَمَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ ذَلِكَ فِي حَيَاتِهِ.

وَأَمَّا بَعْدَ مَوْتِهِ، فَحَاشَا وَكَلَّا أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ ذَلِكَ عِنْدَ قَبْرِهِ، بَلْ أَنْكَرَ السَّلَفُ الصَّالِحُ عَلَىٰ مَنْ قَصَدَ دُعَاءَ اللهِ عِنْدَ قَبْرِهِ، فَكَيْفَ بِدُعَائِهِ نَفْسِهِ ﷺ؟

وَلَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرَىٰ: وَهِيَ قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ، اعْتَرَضَ لَهُ جِبْرِيلُ فِي الهَوَاءِ، فَقَالَ لَهُ: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا.

قَالُوا: فَلَوْ كَانَت الاسْتِغَاثَةُ بِجِبْرِيلَ شِرْكًا، لَمْ يَعْرِضْهَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ.

فَالجَوَابُ: أَنَّ هَذَا مِنْ جِنْسِ الشُّبْهَةِ الأُولَىٰ، فَإِنَّ جِبْرِيلَ عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَمْرٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم:٥]، فَلَوْ أَذِنَ اللهُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ نَارَ إِبْرَاهِيمَ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الأَرْضِ وَالجِبَالِ وَيُلْقِيهَا فِي المَشْرِقِ أَو المَغْرِبِ لَفَعَلَ، وَلَوْ أَمَرَهُ أَنْ يَضَعَ إِبْرَاهِيمَ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْهُمْ لَفَعَلَ، وَلَوْ أَمَرَهُ أَنْ يَرْفَعَهُ إِلَىٰ السَّمَاءِ لَفَعَلَ.

وَهَذَا كَرَجُلٍ غَنِيٍّ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ يَرَىٰ رَجُلًا مُحْتَاجًا، فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ أَنْ يُقْرِضَهُ أَوْ أَنْ يَهَبَهُ شَيْئًا يَقْضِي بِهِ حَاجَتَهُ، فَيَأْبَىٰ ذَلِكَ الرَّجُلُ المُحْتَاجُ أَنْ يَأْخُذَ، وَيَصْبِرُ إِلَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُ اللهُ بِرِزْقٍ لَا مِنَّةَ فِيهِ لِأَحَدٍ، فَأَيْنَ هَذَا مِن اسْتِغَاثَةِ العِبَادَةِ وَالشِّرْكِ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ؟!

وَلْنَخْتِم الكَلَامَ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ- بِمَسْأَلَةٍ عَظِيمَةٍ مُهِمَّةٍ، تُفْهَمُ مِمَّا تَقَدَّمَ، وَلَكِنْ نُفْرِدُ لَهَا الكَلَامَ لِعِظَمِ شَأْنِهَا، وَلِكَثْرَةِ الغَلَطِ فِيهَا.

فَنَقُولُ: لَا خِلَافَ أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِالقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالعَمَلِ، فَإِنِ اخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ هَذَا لَمْ يَكُنْ الرَّجُلُ مُسْلِمًا، فَإِنْ عَرَفَ التَّوْحِيدَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ مُعَانِدٌ؛ كَفِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ وَأَمْثَالِهِمَا.

وَهَذَا يَغْلطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، يَقُولُونَ: هَذَا حَقٌّ، وَنَحْنُ نَفْهَمُ هَذَا، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ الحَقُّ، وَلَكِنَّا لَا نَقْدِرُ أَنْ نَفْعَلَهُ، وَلَا يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِنَا إِلَّا مَنْ وَافَقَهُمْ، أَوْ غَيْر ذَلِكَ مِنَ الأَعْذَارِ، وَلَمْ يَدْرِ المِسْكِينُ أَنَّ غَالِبَ أَئِمَّةِ الكُفْرِ يَعْرِفُونَ الحَقَّ، وَلَمْ يَتْرُكُوه إِلَّا لِشَيْءٍ مِنَ الأَعْذَارِ، كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة:٩]، وَغَيْر ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

فَإِنْ عَمِلَ بِالتَّوْحِيدِ عَمَلًا ظَاهِرًا وَهُوَ لَا يَفْهَمُهُ أَوْ لَا يَعْتَقِدُهُ بِقَلْبِهِ، فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الكَافِرِ الخَالِصِ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

وَهَذِهِ المَسْأَلَةُ مَسْأَلَةٌ كَبِيرَةٌ طَوِيلَةٌ، تَتَبَيَّنُ لَكَ إِذَا تَأَمَّلْتَهَا فِي أَلْسِنَةِ النَّاسِ،

تَرَىٰ مَنْ يَعْرِفُ الحَقَّ وَيَتْرُكُ العَمَلَ بِهِ؛ لِخَوْفِ نَقْص دُنْيَا أَوْ جَاهٍ، أَوْ مُدَارَاةً لِأَحَدٍ، وَتَرَىٰ مَنْ يَعْمَلُ بِهِ ظَاهِرًا لَا بَاطِنًا، فَإِذَا سَأَلْتَهُ عَمَّا يَعْتَقِدُ بِقَلْبِهِ، فَإِذَا هُوَ لَا يَعْرِفُهُ.

وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِفَهْمِ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ:

أُولَاهُمَا: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٦].

فَإِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ غَزَوا الرُّومَ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ كَفَرُوا بِسَبَبِ كَلِمَةٍ قَالُوهَا عَلَىٰ وَجْهِ المَزْحِ وَاللَّعِبِ، تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِالكُفْرِ أَوْ يَعْمَلُ بِهِ خَوْفًا مِنْ نَقْصِ مَالٍ أَوْ جَاهٍ، أَوْ مُدَارَاةً لِأَحَدٍ، أَعْظَمُ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ يَمْزَحُ بِهَا.

وَالآيَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النحل:١٠٦، ١٠٧].

فَلَمْ يَعْذِرِ اللهُ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ مَعَ كَوْنِ قَلْبِهِ مُطْمَئِنًّا بِالإِيمَانِ.

وَأَمَّا غَيْرُ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ، سَوَاءٌ فَعَلَهُ خَوْفًا، أَوْ مُدَارَاةً، أَوْ مَشَحَّةً بِوَطَنِهِ، أَوْ أَهْلِهِ، أَوْ عَشِيرَتِهِ، أَوْ مَالِهِ، أَوْ فَعَلَهُ عَلَىٰ وَجْهِ المَزْحِ، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَغْرَاضِ إِلَّا المُكْرَه، **فَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَىٰ هَذَا مِنْ جِهَتَيْنِ:**

الأُولَىٰ: قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ [النحل:١٠٧]، فَلَمْ يَسْتَثْنِ اللهُ تَعَالَىٰ إِلَّا المُكْرَهَ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يُكْرَهُ إِلَّا عَلَىٰ الكَلَامِ أَوْ الفِعْلِ، وَأَمَّا عَقِيدَةُ القَلْبِ فَلَا يُكْرَهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ.

وَالثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾.

فَصَرَّحَ أَنَّ هَذَا الكُفْرَ وَالعَذَابَ لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ الاعْتِقَادِ، أَوِ الجَهْلِ، أَوِ البُغْضِ لِلدِّينِ، أَوْ مَحَبَّةِ الكُفْرِ، وَإِنَّمَا سَبَبُهُ أَنَّ لَهُ فِي ذَلِكَ حَظًّا مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا، فَآثَرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ، وَاللهُ ﷻ أَعْلَمُ.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.